يا فضيلة الدكتور: هل يكذب الله ورسوله إذا حملنا النصوص على ظاهرها ؟!![1]

لقد اطلعت على تعقيب الدكتور /محمد البار على الشيخ يوسف المحمدي في ملحق الرسالة من صحيفة المدينة العدد (13655) بتاريخ 1421/6/12هـ فرأيت أنه اشتمل على بعض الأخطاء التي لابد من التنبيه عليها ، وسأقف مع الدكتور البار الوقفات التالية :

الوقفة الأولى : عرف التأويل بقوله : (وأما التأويل فهو إخراج اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر يحتمله وليس هو الظاهر إليه)ا.هـ

وأقول : إن تسمية هذا تأويلاً لم يكن في عرف السلف ، وإنما سماه تأويلاً طائفة من المتأخرين الخائضين في الفقه وأصوله وعلم الكلام .

ثم إنه يترتب عليه عدة مفاسد منها :

1- مخالفة إجماع السلف اذ لو كانت ظواهر الآيات والأحاديث لها معنى مخالف لتلك الظواهر لنبهوا عليه .

2- أن بيان ذلك من ضروريات التكليف فيجب على الرسول صلى الله عليه وسلم بيانه فلما لم يبينه دل ذلك على أننا متعبدون باعتقاد تلك الظواهر .

3- أنه لو كان لها ظواهر غير مايفهم منها لجاءت نصوص الشرع ببيانه ولو في حديث واحد أو آيه واحدة .

4- أن الله تعبدنابتلاوة كتابه وتدبره ولو كانت لها معان لاتفهم من ظواهرها مع عدم البيان لكان ذلك تكليفاً بما لايطاق .

5- أن فتح هذا الباب طريق إلى تحريف الشرع وتغييره إذ لكل أحد أن يقول في أي آية من كتاب الله أو حديث عن رسول الله له معنى غير مايفهم من ظاهره فيؤول .

6- أن الأصل في نصوص الشرع التعبد بظواهرها حتى يأتي دلبل من صاحب الشرع بالخروج عنه والتأويل خروج عن الأصل فيحتاج لدليل صحيح وإلا فالتعبد بالظواهر واجب .

7- فيه نسبه العي لله ورسوله لأن البليغ إذا أراد المجاز لابد وأن يقترن كلامه بما يدل على مراده .

وأما التأويل عند السلف فإنه يطلق على معنيين : الأول : بمعنى التفسير . وهو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن .

والثاني : بمعنى الحقيقة التي يؤول الكلام إليها وإن وافقت ظاهره . وهذا هو المعنى الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة .

الوقفة الثانية :

قال الدكتورالبار : (والتأويل في الآيات والأحاديث الموهمة للتشبيه معلوم ومعروف ... وذكر المعية وأنها تؤول بعلم الله وحفظه لابذاته .. وذكر قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وأنها تؤول بقدرته وسلطانه .. وذكر

---

(١) نشر هذا الرد في جريدة المدينة ملحق الرسالة عام1421هـ.

قرب الله وأنه يؤول بعلمه سبحانه .

وأقول : أولاً : أين الدكتور من قول الله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فنفى الله تعالى أن يكون له مثيل ، ونفي المثل أبلغ من نفي الشبيه . فينبغي قطع الطمع عن التشبيه والتمثيل في حق الله تعالى .
ثانياً : أن اثبات الصفات لايستلزم التشبيه ؛ لأن الاشتراك في الأسماء والصفات لايستلزم تماثل المسميات والموصوفات . فإننا نشاهد في المخلوقات ماتشترك أسماؤه وصفاته في اللفظ وتتباين في الحقيقة فللفيل يد وللإنسان يد والتباين بينهما معلوم فإذا جاز هذا التباين بين المخلوقات كان جوازه بين الخالق والمخلوق من باب أولى ، بل التباين بين الخالق والمخلوق واجب والتماثل- كما هو التعبير القرآني- ممتنع غاية الامتناع .
وبناءً عليه فلايصح تأويل _ والأصح تحريف_ اليد الواردة في الكتاب والسنة لله تعالى بالقدرة والسلطان ؛ بل له سبحانه وتعالى يدين تليقان به لاتشبه يد المخلوقات .
ثالثاً : لقد ذكر الدكتور أن معية الله الواردة في الآيات تؤول بعلمه وبحفظه لابذاته . وأقول للدكتور من الذي قال أن معية الله لخلقه معية ذاتية ؟فإن الصحابة مجمعون على أنه تبارك وتعالى مع خلقه بعلمه لابذاته . وكذا نقل عن السلف فلاحجة فيما ذُكر.
الوقفة الثالثة : ذكر الدكتور من شروط التأويل أن يكون ظاهر النص مخالفاً لحقيقة من الحقائق الكونية الثابتة . وذكر أمثلة على ذلك حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان. وذكر حديث ذهاب الشمس عند الغروب إلى تحت العرش تسجد له ثم تعود .
والجواب عن هذا أن يقال :
أولاً : لايمكن أن يتعارض نقل صحيح مع عقل صريح .
ثانياً : لامانع أن يكون للشيء سبب ظاهر يعلمه العباد ، وسبب باطن يخبر الله عز وجل به ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولذا لم ينقل عن الصحابة أنهم خاضوا في هذا الأمر ، بل كان موقفهم (سمعنا وآمنا) ولاأحد يقول أن من بعد الصحابة أعلم بكلام الله ورسوله منهم إلا من أزاغ الله قلبه . أفلا يسعنا _ يادكتور _ أن نقف حيث وقف القوم ، فإنهم عن علم وبصيرة وقفوا .
ثالثاً : قال الإمام النووي أن معنى حديث يخرج من أصلها نهران ... الحديث أي أن الأنهار تخرج من أصلها ثم تسير حيث أراد الله تعالى حتى تخرج من الأرض وتسير فيها ، وهذا لايمنعه عقل ولاشرع وهو ظاهر الحديث فوجب المصير إليه . ا.هـ
قال الألباني : (ولعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها كما أن أصل الإنسان من الجنة ، فلاينافي الحديث ماهو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعلروفة في الأرض، فإن لم يكن هذا هو المعنى أو مايشبهه ، فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها ، والتسليم للمخبر عنها " فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ")
انظر السلسلة الصحيحة (112).

فإذا تقرر ماسبق فلا إشكال في حمل حديث الطاعون_ الذي ورد فيه أنه من وخز الجن _ على حقيقته ولامسوغ للتأويل على كلام الدكتور ، ثم إنه يلزم الدكتور _ وليس بلازم له إلا إذا التزمه _أن يحرف كلام الله ورسوله عن معناه ، ولكل من هب ودب أن يحمل النصوص على غير مراد الله ورسوله بدعوى أنها تخالف الواقع والاصطلاحات الحادثة . والذي نفسي بيده إن هذه هزيمة نفسية أصيب بها المسلمون في هذا العصر لما رأوا ماعند الغرب من مكتشافات ومخترعات ، فسبحان الله أنسلم عقولنا لأقوام لايؤمنون بالله ورسوله !! أفكلما جاؤنا بشيء توهمنا أنه يخالف شرعاً فتزعزع ثوابتنا ونتنازل عن مسلمات ديننا ونُلبس ذلك ثوباً فضفاضاً اسمه (التأويل) !!فكم جنى هذا التأويل-_ التحريف_ على الأمة من الويلات والمصائب ؟! آمنا بالله وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله ، على مراد رسول الله .

كتبه

زاهر بن محمد الشهري

1421هـ